مقالة في التأصيل الشرعي والتاريخي

تصحيح مفهوم السَّلَف

من هم سَلَفُ الأمّة على الحقيقة؟

بقلم: **الكاتب والمؤرخ الدكتور وليد الزهراني**

أولاً: الخطأ المنهجي في توسيع مفهوم السَّلَف

يشيع في الاستعمال المعاصر توسيع لفظ السَّلَف بلا ضابط، حتى صار يُطلَق على كل من تقدَّم زمانه أو عاش قبلنا، وهذا خطأٌ منهجيّ؛ إذ إنّ السَّلَف في الاصطلاح الشرعي المأثور ليس كل متقدِّم، بل هم أهل القرون الثلاثة المفضَّلة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية، بدءاً بالصحابة، ثمّ كبار التابعين، ثمّ أتباع التابعين.

ثانياً: الدلالة اللغوية والشرعية للفظ

الدلالة اللغوية والشرعية للفظ السَّلَف: فالسَّلَف في لسان العرب بمعنى المتقدِّم السابق، لكنّ الشرع خصَّصه بمنهجٍ وزمنٍ وأجيالٍ معينة لا يتجاوزها، كما دلّت عليه نصوص السنة، وأهمّ تلك النصوص قوله صلى الله عليه وسلم:

> « خيرُ النّاسِ قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم »
>
> متّفقٌ عليه: رواه البخاري (كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جَورٍ، حديث رقم 2652) ومسلم (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، حديث رقم 2533)

ولهذا الحديث أصلٌ في الباب، إذ حصر الخيرية في ثلاثة أجيال محددة، ولم يربطها بمفهوم القرن الزمني المكوَّن من مائة عام، بل بالجيل البشري المتعاقب.

ثالثاً: المقصود بـ«القرن» في الحديث النبوي

القرن في لسان العرب لا يعني مائة سنة بالضرورة، والمراد هنا الجيل، وكما قال الله تعالى في سورة الإسراء (الآية 17): ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾؛ أي: الأجيال، وهذا يدلّ على أنّ القرن يدلّ على معنى الجيل في المقام الأول. وقوله صلى الله عليه وسلم في

الحديث الصحيح المتَّفق عليه، والذي أخرجه البخاري بعدّة ألفاظٍ وأسانيد في صحيحه: « لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرين على الحق ... »، وإن كان هنا لفظ "الظهور" ممتدّاً، إلّا أنّ القمّة النموذجية المؤسِّسة بقيت في القرون الثلاثة الأولى.

رابعاً: طبقات السَّلَف الثلاث

من هم السَّلَف بالضبط؟ وفق النصوص والاصطلاح العلمي الراسخ نستطيع أن نقسِّم السَّلَف إلى ثلاث طبقات متعاقبة:

الطبقة الأولى: الصحابة رضي الله عنهم

وهم الجيل المؤسِّس والشهود على الوحي، وأصحاب الشرف القطعي بالنص.

الطبقة الثانية: كبار التابعين

وهم الذين تلقَّوا الدين غضًّا من أفواه الصحابة رضي الله عنهم.

الطبقة الثالثة: أتباع التابعين

وهم الجيل الذي أخذ العلم عن كبار التابعين، وهو الجيل الذي اكتمل فيه تدوين العلوم واستقرار المذاهب الأولى.

هذه الأجيال الثلاثة المتعاقبة هي مجمل ما يُسمَّى بـ«القرون المفضَّلة»!

خامساً: لماذا لا يُقصد بالقرن هنا مائة سنة؟

القرن في الحديث ليس زمناً حسابياً، وإنما هو جيلٌ من البشر، ولو كان القرن = 100 سنة لما كانت الأجيال الثلاثة (الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين) متتابعة؛ لأنّ أعمارهم تداخلت في فترة أقلّ من ثلاثة قرون حسابية، ولهذا اتّفق أئمة اللغة والحديث على أنّ القرن = الجيل من الناس، وليس زمناً محدداً بعدد السنين.

سادساً: أقوال الأئمة في تحديد معنى القرن

الخطّابي (ت 388هـ) في «معالم السنن» (ج4/ص255): « القرن أهلُ زمانٍ واحدٍ متقاربون في السنّ ».

ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في «فتح الباري» (ج7/ص6-7-8): كلامٌ يطول مفاده أنّ المقصود بالقرون الأجيال الثلاثة المشهود لها بالخيرية.

سابعاً: نهاية القرون المفضَّلة: سنة 132هـ

انتهاء القرون المفضَّلة بانتهاء الدولة الأموية سنة 132هـ، فقد أجمع أهل التاريخ والحديث على أنّ آخر أتباع التابعين، وهم الجيل الثالث من القرون المفضَّلة، قد كان عصرهم في أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، لكنّ العُرف العلمي يجعل نهاية الدولة الأموية هي الحدّ الفاصل العملي لانتهاء القرون المفضَّلة!

ومن الأدلّة والاعتبارات على ذلك أنّ أكابر أتباع التابعين، وهم طبقة القرون المفضَّلة الأخيرة، أدركوا العقود الأخيرة من الحكم الأموي، كالإمام مالك بن أنس، إذ وُلِد في عام 93هـ، والأوزاعي وُلِد في 88هـ، وهذان هما قمّة الجيل الثالث «أتباع الأتباع».

ثمّ كان التحوُّل السياسي والعقدي بعد 132هـ مع قيام الدولة العباسية، فُتِح باباً جديداً في التاريخ، فلم يعد استمراراً صافياً للعصر السلفي النقي، وظهرت فيه سياسات المصادرة العلمية، وبروز الاتجاهات الكلامية، واشتداد الفتن المذهبية، وكان بداية التدوين المتأخِّر خارج البيئة السلفية الأولى، فقد قرَّر أكثر «أهل العلم» أنّ السَّلَف هم مَن كان قبل ظهور البدع وانتشارها، وأكثرها تفشَّى بعد سقوط الدولة الأموية الراشدة.

وبذلك يصحّ القول تأصيلاً: إنّ القرون المفضَّلة الثلاثة الأولى تنتهي عملياً عند سنة 132هـ، وهي سنة سقوط الدولة الأموية في المشرق، إذ إنّ هذا التاريخ يُنهي الجيل الثالث الذي شهد له نبيّنا صلى الله عليه وسلم بالخيرية!

الكاتب والمؤرخ الدكتور وليد الزهراني